



تحدثت سورة آل عمران في آيات كثيرة ( 121 - 179 ) عن غزوة أحد وما حف بها من أمور قبلها وبعدها ، وقد وضعت السورة ما وقع لل المسلمين في أحد في إطار تاريخي ليكون درساً للمسلمين في كل زمان ومكان ، ولذلك جاء في هذه السورة ومن خلال الحديث عن أحد ( قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ) ونقرأ فيها قوله تعالى " وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين " .

إن مقارنة الأحداث واستخلاص التجارب والاستفادة من الماضي هو دأب العلماء ودأب المخلصين أولي الألباب قال ابن تيمية وهو يقارن بين واقعة التتار في الهجوم على دمشق وما حصل في موقعة الخندق : " فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده ، ودأب الأمم وعاداتهم ، لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين ذكرها ، واستطرار في جميع ديار الإسلام شررها ، وكثّر فيها الكفر عن أنبيائه وأضراره ، وكاد عمود الكتاب أن يُجتثّ ويخترم ، وعقر دار المؤمنين

" ( الشام ) أن يحل بها البوار .... "

**الهزيمة بعد النصر :**

( 1 )

لم يكن هناك تكافؤ في العدد بين جيش المسلمين وجيش قريش ، فعدد جيش المسلمين حوالي السبعمائة ، وجيش الكفار ثلاثة آلاف ، ولكن خطة الرسول صلى الله عليه وسلم المحكمة عوضت هذا النقص بأن يكون على جبل الرماة خمسون

يحمون المسلمين من التفاف خيل الكفار . وأسند ظهره مع بقية الجيش إلى جبل أحد وكان النصر حاسماً في بداية المعركة ( إذ تحسونهم بإذنه ) مما أدى إلى تراجع قريش وبطبيعة هزيمتهم . وهنا وقع شيء مفاجئ حول مسار المعركة ، إذ نزل أكثر الرماة من الجبل يريدون الغنائم بعد أن لاح النصر وبدأ فرار جيش المشركين ، واستطاع خالد بن الوليد قائد فرسان قريش الالتفاف والقضاء على بقية الرماة ، وعاد المنهزمون من المشركين للقتال ، ووقع المسلمين في الحصار وكان تركيز قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام نفر من المسلمين الأبطال بحمايته بأنفسهم وأبدوا من البطولات الخارقة ما تكسرت أمامها هجمات المشركين.

( 2 )

هذه المقاومة العنيفة من الصحابة الكرام قللت من خسائر المسلمين ، وأشعرت قريشاً أن القضاء على المسلمين ليس أمراً هيناً ، بل أصابت هذه المقاومة الرهبة في نفوس المشركين ، فلم يفكروا في الإغارة على المدينة بعد انتهاء المعركة .

نقد وتنمية :

بعد الخطأ والتنازع الذي وقع فيه الرماة ، وما جر ذلك من التفاف خيل المشركين ، بدأت جولة ثانية من المعركة ، وأصيب الرسول صلى الله عليه وسلم بشُدّ رأسه وكسرت رباعيته ، بعد هذه الجولة تحدث القرآن وصارح المسلمين بخلافات نفوسهم ، وعرض ما كان فيها من صراع نفسي واضطراب بين نوازع الثبات أو التخلّي ، عرض ذلك دون أن يخفي شيئاً تحدثت به نفوسهم ، وذلك لأنها نفوس إنسانية تصرّط فيها نوازع القوة والضعف ، عرض صورة من القلق قبل المعركة ( إذ همت طائفتان منكم أن تفشلوا والله ولهم ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) تغلب الإيمان والثبات وعزموا على المضي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسر في قوله تعالى ( والله ولهم ) ، وأما الذي حدث أثناء المعركة فهو كما قال تعالى ( ولقد صدّقتم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلت وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكـم ما تحبون منكم من يرید الدنيا ومنكم من يرید الآخرة ثم صرفـكم عنـهم لـبيـتـكـم ولـقد عـفـا عـنـكـم والله ذـو فـضـلـ عـلـىـ المؤـمـنـينـ ) إن عصيـانـ الرـماـةـ واتـجـاهـهـمـ نحوـ الغـنـائـمـ ( منـكـمـ منـ يـرـيدـ الدـنـيـاـ ) حـوـلـ مـسـارـ المـعـرـكـةـ ، وـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ يـذـكـرـ ثـلـاثـ صـفـاتـ تـكـفـيـ إـحـدـاـهـاـ لـلـهـزـيمـةـ : الفـشـلـ وـالـتـنـازـعـ وـالـعـصـيـانـ ، وـهـنـاكـ طـائـفـةـ أـخـرـىـ فـرـواـ بـعـدـ الصـدـمـةـ الـمـفـاجـئـةـ ، وـلـكـنـهـمـ نـدـمـواـ وـرـجـعـواـ وـالـلـهـ سـبـحـانـهـ يـعـاتـبـهـمـ عـلـىـ تـصـرـفـهـمـ هـذـاـ "ـ إـذـ تـصـعـدـونـ وـلـأـ تـلـوـونـ عـلـىـ أـحـدـ ، وـالـرـسـوـلـ يـدـعـوـكـمـ فـأـرـاـكـمـ فـأـثـابـكـمـ غـمـاـ بـغـمـ لـكـيـلـاـ تـحـزـنـواـ عـلـىـ مـاـ فـاتـكـمـ وـلـأـ مـاـ أـصـابـكـمـ "ـ .

( 3 )

أصابـهمـ غـمـ الـهـزـيمـةـ وـغـمـ الإـشـاعـةـ أـنـ مـحـمـداـ صـلـىـ اللهـ عـلـىـ وـسـلـمـ قـدـ قـتـلـ ، وـغـمـ الـجـراحـ الـتـيـ أـصـابـتـهـ ، فـهـوـ غـمـ مـتـابـعـ وـلـيـسـ غـمـاـ وـاحـدـاـ وـلـأـ غـمـيـنـ اـثـنـيـنـ خـاصـةـ وـهـنـاكـ طـائـفـةـ اـخـتـلـفـ فـيـ أـمـرـهـ ، هـلـ هـمـ مـنـ ضـعـافـ الـإـيمـانـ أوـ مـنـ الـمـنـافـقـينـ ، وـذـلـكـ بـسـبـبـ ظـنـونـهـمـ الـجـاهـلـيـةـ (ـ وـطـائـفـةـ قـدـ أـهـمـتـهـمـ أـنـفـسـهـمـ يـظـنـونـ بـالـلـهـ غـيـرـ الـحـقـ ظـنـ الـجـاهـلـيـةـ يـقـولـونـ هـلـ لـنـاـ مـنـ أـمـرـ مـنـ شـيـءـ قـلـ إـنـ الـأـمـرـ كـلـهـ لـلـهـ يـخـفـونـ فـيـ أـنـفـسـهـمـ مـاـ لـأـ يـبـدـونـ لـكـ يـقـولـونـ :ـ لـوـ كـانـ لـنـاـ مـنـ الـأـمـرـ شـيـءـ مـاـ قـتـلـنـاـ هـاـ هـنـاـ ....ـ )ـ

يـقـولـ الشـيـخـ رـشـيدـ رـضـاـ فـيـ تـفـسـيرـهـ :ـ "ـ وـهـذـهـ طـائـفـةـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ الـضـعـفـاءـ وـلـأـ حـاجـةـ إـلـىـ جـعـلـهـاـ فـيـ الـمـنـافـقـينـ كـمـاـ قـيـلـ ، وـقـولـهـمـ هـذـاـ يـفـيدـ أـنـ لـهـمـ مـنـ أـمـرـ النـصـرـ وـعـدـهـ شـيـءـ ، فـهـلـ نـلـامـ إـنـ وـلـيـنـاـ وـغـلـبـنـاـ ، وـكـأـنـهـمـ عـجـبـوـ مـاـ وـقـعـ فـيـ أـحـدـ ، وـكـأـنـهـ مـنـافـ لـحـقـيـقـةـ الـدـيـنـ "ـ وـالـذـيـنـ قـالـوـاـ :ـ هـيـ فـيـ الـمـنـافـقـينـ لـأـنـهـمـ ظـنـواـ فـيـ اللـهـ ظـنـ مـشـرـكـيـ الـجـاهـلـيـةـ ، وـأـنـ ظـهـورـ الـمـشـرـكـينـ فـيـ أـحـدـ دـلـيـلـ عـلـىـ بـطـلـانـ دـعـوـةـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـىـ وـسـلـمـ ، وـهـمـ يـخـفـونـ فـيـ أـنـفـسـهـمـ هـذـاـ الشـيـءـ وـلـأـ يـبـدـونـهـ .ـ

قال ابن القيم : " ان ظنهم الباطل ها هنا هو التكذيب بالقدر ، وأنه لو كان الأمر إليهم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم تبعاً لهم لما أصابهم القتل " .

عتاب رقيق :

بعد هذه المصارحة والمكاشفة لما في النفوس حتى تبرأ مما فيها جاء العتاب في سورة آل عمران رقيقاً فلم يعنّفوا تعنيفاً شديداً على خطئهم وعصيائهم لأوامر قائدتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بل أزال عنهم آثار الجراحات وما أصابهم من الغم ، وآنسهم بأنهم هم الأعلون ( ولا تهنووا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يُحب الظالمين وليرحم الله الذين آمنوا ويتحقق الكافرين / 139 - 141 .

فهذا خطاب لهم لتنقية نفوسهم وإحياء عزائمهم وقال لهم أن هناك حكمة أخرى مما حدث وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين وقال سبحانه مخاطباً رسوله : " فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم وشاورهم في الأمر " وهذا من أحسن التربية لأنه لو شدد عليهم زيادة مما هم فيه من الآلام ، فلربما وهن العزم منهم ، قال ابن عطية في تفسيره : " ومن كرم الخلق ألا يهين الإنسان في حربه وخصامه ولا يلين إذا كان مهفاً ولا يضرع ولو مات وإنما يحسن اللين في السلم والرضا " .

( 4 )

السنن الربانية :

من أعظم الدروس المستفادة من أحد هذا التوجيه إلى السنن التي وضعها الله سبحانه في الكون ، وليرى المسلمين الذين استغروا ما حصل ، وكيف يُدال للشرك على الإسلام " أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أتى هذا قل هو من عند أنفسكم " أي أن أمر النصر أو الهزيمة وأمر العز والذل والقوة والضعف والغنى والفقير ، كل هذا يجري على سنن ربانية ، فليس الأمر جزافاً ولا مجموعة من المصادفات ، ولو كان الأمر كذلك لما أمكن أن يستفيد الإنسان من تجربة ، والعلم ب السنن الله من أهم العلوم التي يجب أن تتجه إليها الأنظار ، قال تعالى : " هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين " هذا علم يستطيع الإنسان الوصول إليه ما اتخذ إلى ذلك سبيلاً ، ووراء العلم هدىً وموعظة ولذلك لم يشفع للصحابة في أحد والرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وأنهم على حق ، لم يشفع لهم أن ينتصروا أو لم يتذدوا الأسباب المؤدية لذلك .

ليس مجرد الإيمان يستتبع النصر ولا مجرد عدالة القضية وإنما الجمع بين قوة العقيدة وقوة التنظيم وقوة التسليح ولمثل هؤلاء قال تعالى ( فَاتَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحْسَنُ ثَوَابُ الْآخِرَةِ )

قوانين النصر :

كان التوجيه من خلال معركة أحد أن فقد القيادة لا يعني التراجع والانكسار ، حتى لو كانت هذه القيادة هي شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفالين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً ) .

وتعقيباً على أحد قال تعالى ( وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ) وما كان قوله إلا أن قالوا ربنا أغرنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا

على القوم الكافرين فـاتـمـ الله ثـوابـ الدـنيـا وـحـسـنـ ثـوابـ الـآخـرـة وـالـلـه يـحـبـ الـمـحـسـنـينـ).

ينفي الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء الربيون ثلاثة صفات : ما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا ، والوهن يكون في القلب ، وفي الإيمان ، والضعف يكون في الجوارح ، فهم يجاهدون دون ضعف ، والإستكانة تكون للعدو وهي الذلة والخضوع له وبعد أن نفى عنهم هذه السلبيات ، تأتي الآية التالية لتحديد الطريق الذي سلكوه للوصول إلى هذا المستوى الرفيع .

الخطوة الأولى : أنهم يدخلون المعركة أطهاراً يطلبون المغفرة من الله ، ويدعون أن يثبت الله أقدامهم ، ومن الإيمان الراسخ يأتي التثبيت والمواقف الصلبة ، ثم يأتي النصر ( وانصرنا على القوم الكافرين ) .

إن ما وقع في أحد من جراح وألام وأخطاء لا يفقد المسلمين حقهم في إبداء الرأي ، ومع أن رأي الرسول صلى الله عليه وسلم في البقاء في المدينة والمدافعة من داخلها كان هو الرأي الصحيح ولكنه صلى الله عليه وسلم أخذ بالشوري عندما وجد أن أكثرية الشباب يريدون الخروج إلى أحد . وجاءت الآية ( وشاورهم في الأمر )

وكانه سبحانه وتعالى يقول له : " دم على المشاورة كما فعلت قبل هذه الواقعة وإن أخطأوا الرأي فيها فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة ، وشاورهم في الأمر العام الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ".

( 5 )

ومن الملاحظ أنه من خلال الحديث عن القتال وآثار المعركة تحدثت الآيات عن ( الربا ) : " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون " 130

وتحدثت عن الإنفاق ( الذين ينفقون في النساء والضراء والكافرية والغيط والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ) 134 . أي أن من أسباب القوة المطلوبة الإعداد الحربي وهذا لا بد له من المال ، ولا يصح جمع المال عن طريق الربا كما تفعل قريش أو يفعل اليهود في المدينة ، فالغاية لا تبرر الوسيلة ، ولا بد من قاعدة اقتصادية قوية ولكن ليست بالطرق الحرام .

**بعد الحديث :**

وكان قريش ندمت على عدم استباحة المدينة بعد الذي أحرزوه في أحد ، ولكنهم تذكروا المقاومة العنيفة التي جوبهوا بها من المسلمين ، ومع ذلك فإن أبا سفيان قائد قريش أرسل من يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم أجمعوا على الرجوع لاستئصال المسلمين .

( الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوه فزادهم إيماناً وقالوا: حسينا الله ونعم الوكيل ) .

وفي اليوم التالي لأحد جاءت الأوامر من الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى قريش ولا يخرج إلا من كان قد حضر أحداً وبهذه الحركة استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرفع من معنويات المسلمين وعسّكروا في مكان اسمه ( حمراء الأسد ) وانتظروا قريشاً وعندما علمت قريش بهذا التحرك أصيّبت بالرعب وآثروا السلام واستمروا في سيرهم إلى مكة وكفى الله المؤمنين القتال .

1 - انسحب ثلثه بتحريض المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول .

2 - استشهد سبعون صحابياً رضي الله عنهم .

3 - انظر : ابن القيم ، زاد المعاد 3 / 227

4 - المحرر الوجيز 3 / 335 .

5 - رشيد رضا / تفسير المنار / سورة آل عمران .

6 - من المراجع : دروس من غزوة أحد للدكتور عبد العزيز كامل ، فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى دروس السيرة للدكتور محمد العبدة .

المصادر: